الدرس السابع: القرن 19 والتوسع الإستعماري

الأنثروبولوجيا الاستعمارية أو الأنثروبولوجيا كأداة استعمارية

إن الفعل الاستعماري قديم قدم التجمعات البشرية، ولا يمكن لقائل أن يقول بأن الاستعمار قد اتخذ في البداية معنى ايجابياً ثم تحوَّل إلى السلب فيما بعد. فباستثناء تعمير المناطق غير المأهولة ـ على سبيل المثال ـ فإنه ترافقت مع الفعل الاستعماري ردود أفعالٍ شتى كالاستهجان، والتنديد، والاستنكار، والمعاداة الصريحة، مضافاً إلى ردود أفعال المناطق المستعمرة، وكذلك ردود أفعال بعض أفراد المجتمع الاستعماري نفسه.

إن ارتباط نشأة الأنثروبولوجيا، و بداياتها التاريخية بالاستعمار، حيث كانت الدراسات تتم على المجتمعات غير المتحضرة بهدف معرفة بنيتها التركيبية ، و طبيعتها الثقافية ، ليسهل استعمارها، فأصبحت (الأنثروبولوجيا) أداة استعمارية بامتياز هدفها تسهيل مهمة الاستعمار في السيطرة و استعباد الشعوب .

فـ(الاستعمار) (Colonization)هو : الاستغلال و الاضطهاد السياسي و الاقتصادي و النفوذ الثقافي اللذان تتعرض لهما بلدان هي عادة أقل تطوراً في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية من الطبقات السائدة في الدول المستعمرة و التي تكون أكثر تطوراً .

ظهر بعده مصطلح (الاستعمار الجديد) و هو: السياسة الكولونيالية التي تنتهجها الدول الامبريالية في ظروف تفكك و انهيار النظام الكولونيالي ، و تعاظم حركة التحرر الوطني ، حيث تعمد الدول الامبريالية إلى المحافظة على جوهر السيطرة الكولونيالية (الاستعمارية) باللجوء إلى أساليب اقتصادية و سياسية و عسكرية و ثقافية عديدة تنسجم مع الظروف الجديدة ، هدفها إخضاع الأقطار المتحررة حديثاً (المستعمرات السابقة) إلى السيطرة الفعلية للإمبريالية ، لكن بصورة جديدة و أسلوب جديد مخادع ، و تحت عناوين اكثر خداعاً .

لا يمكن إنكار دور المدرسة الأنثروبولوجية التي نشأت في ظل الاستعمار والتي خدمته، وقدمت له المعلومات اللازمة حتى يتمكن من السيطرة على الشعوب المستعمرة وتحقيق مصالحه على حسابها وحساب مستقبلها.

وإذا، كان تاريخ العلم الأنثروبولوجي لا ينكر على الإطلاق أن المدرسة الاستعماري، وخاصة تلك الموجودة في ردهة من ردهات الخارجية البريطانية لعبت دوراً مهماً في تأسيس العِلم الأنثروبولوجي، و من ثم تطويره، إلا أن بعض علماء هذا العلم كانت تتنازعهم رغبة التحرر من هذه المدرسة، و الانطلاق

إلى دراسة المجتمعات مدفوعين بغايات إنسانية و منهجية، من أجل أن يفهم العالم نفسه، و ما له و ما عليه، و ما هو المطلوب منه حتى يظفر بالتقدم و خاصة المجتمعات الأقل تطوراً و تقدماً في امريكا اللاتينية و آسيا و أفريقيا.

لقد تحولت (الأنثروبولوجيا) أداة بيد السلطة ، أو بالأحرى أداة بيد السلطات الحاكمة في البلدان الأوربية التي كانت تشهد مع توسع البحث الأنثروبولوجي توسعاً جغرافياً مذهلاً حملها من حدودها الضيقة لتجد لها في كل جهة من جهات الأرض موطئ قدم ، و مواقع ، و مساحات جغرافية تفوق مساحاتها الأصلية بمرات . إن العصر الاستعماري الكلاسيك، هو عصر البحث عن مستعمرات، و أسواق ، و عن أيدٍ عاملة ، و عن مواد خام ، و عن زبائن جدد يشترون صناعات غير متوفرة في أراضيهم كل هذا

كان المنطلق الاساس للسياسات الاستعمارية الأولى.

والاستعمار ـ بشكل عام ـ لم يكن عسكرياً و حسب، بل كان استعماراً شكلت الثقافة و في أكثر الأحيان سلاحه الأمضى.

يقول (جيرار لكلرك): (إن موقف الأنثروبولوجيا الاستعماري لم يتوضح بالفعل إلا بعد أن بدأت مرحلة إنهاء الاستعمار في العالم الثالث ... يمكن القول إذن إن الإمبريالية الاستعمارية المعاصرة تتوافق زمنياً مع الأنثروبولوجيا المعاصرة.

لقد بدأ علم الأنثروبولوجيا وتحت تأثير الاستعمار المصطبغ بالصبغة الدينية المسيحية (التبشيرية) بالتعرف على الشعوب ـ التي سيستعمرها ومن كل جوانبها ـ لكي يتعرف على كيفية التعامل معها، وبالتالي الهيمنة عليها.

لقد اعتمد المستعمرون ـ تحت تأثير المؤسسات التبشيرية ـ على علماء الأنثروبولوجيا في دراسة ديانات الشعوب، وطباعهم الاجتماعية و النفسية، و مواردهم الاقتصادية، كي يعرفوا كيف تفكر هذه الشعوب، و كيف تعيش، و ما هي أهدافها، و ما الذي يمكن أن يجتذب الناس في هذه المجتمعات. و مما لا شك فيه أن الدراسات التي قام بها علماء الإنسان لهذه البلدان قد أفادت الدوائر الاستعمارية فائدة كبرى في تسهيل السيطرة عليها، فكانت نتيجة ذلك انطلاق الحركة الاستعمارية الكبرى و التي طالت أكثر من نصف الكرة الأرضية.

لا شك في أن مشروع (عسكرة الأنثروبولوجيا) الذي اعتمده الجيش الأمريكي ـ على سبيل المثال ـ في حروب العراق و افغانستان تحت ما يسمى ببرنامج (إقحام علماء الأنثروبولوجيا في ميدان الحروب، يمثل أوضح صور توظيف الأنثروبولوجيا التطبيقية في ميدان الحروب و النزاعات.

و يشرح العقيد الامريكي (ستيفن فونداكارو) أهداف هذا المشروع بالقول: (إن مهمة العلماء تقوم على تقديم فهم واضح للمشكلات التي يواجهها الجيش مع السكان المحليين، حيث يتلقى الضباط هذه المعلومات و يقررون بموجبها طبيعة الإجراءات العسكرية التي عليهم اتخاذها

لقد أسست الدول الاستعمارية مراكز للبحوث والدراسات و أوكلت مهامها للأنثروبولوجييناالمنضوين تحت سلطتها لدراسة ثقافات الشعوب و كل ما يتعلق بذلك وفق رؤيا ايديولوجية بامتياز.

لا يمكن إنكار الخدمات المتبادلة بين الاستعمار و الأنثروبولوجيا، فكما قدمت الأنثروبولوجيا خدمات جليلة للحركة الاستعمارية، فلقد استفادت الأنثروبولوجيا من الحركة الاستعمارية و التي كان لها أثر كبير في تقدم الدراسات و المناهج الأنثروبولوجية . فمن المعروف أن القرن " 19 " كان يمثل قرن التوسعات الاستعمارية بهدف استعمار المجتمعات البدائية من أجل احكام السيطرة عليها واستغلالها سياسياً اقتصاديا و ثقافيا و دينياً، و من هنا نشطت الدراسات الأنثروبولوجية بأهدافها النظرية و التطبيقية متخذة من هذه المجتمعات الصغيرة مجالاً لدراستها

نعم، لقد شغل (إيفانز بريتشارد)، و (ليتش)، و (نادل) وظائف في المستعمرات، كما و ان (هنري مين) العضو القانوني في مجلس نائب الملك في الهند يعد واضع أسس علم الإنسان الخاص بدراسات القرية في الهند كما في كتابيه (القانون القديم ـ 1861 ميلادي) و (مجتمعات القرى في الشرق و الغرب ـ 1871 ميلادي). وكذلك (ليال) الذي أصبح فيما بعد حاكم المقاطعات الشمالية الغربية فقد قام بنشر كتابه (دراسات آسيوية: عقائدية واجتماعية ـ 1882 ميلادي).

في حقيقة الأمر، تباهى الغرب كثيراً بتقدُّمه العلمي الذي يعزوه إلى عبقرية علمائه، ولكنَّ مسيرة العلم الحديث لا يمكن - بطبيعة الحال - فصلها عن تاريخ الغرب الاستعماري، الذي كان العلم جزءاً أساسياً في تمكينه وتوطيده، مساهماً بذلك في تعميق النظرة العنصرية ضد الشعوب المستعمَرة [1]

إن سعي الاستعمار الحديث للسيطرة على الشعوب لم يكن بالقوة العسكرية والسلاح المدمر فقط؛ بل كان أيضاً بالهيمنة الثقافية والعمل على إعطاء التبريرات الوافية حول إبادة هذه الشعوب واستغلال خيراتها الطبيعية والبشرية، ولقد كُرِّسَت الجهود التي توغلت إلى الخصوصيات الثقافية للوقوف على مكان القوة والضعف عن طريق الملاحظة الدقيقة والمتأنية للوصول إلى نتائج مهمة، ويقول أحد الباحثين في هذا السياق: «لا استعمار جيد بدون أثنولوجيا مُحْكَمة... ولا يمكن أن يتم الاستعمار بالتجريب حين تساعد أضواء الملاحظة العلمية على إتمامه وبمعدل نجاح كبير». [2]

---

[1]- منصور، مرقومة، **الأنثروبولوجيا والنزعة الاستعمارية الحديثة**، المجلد 4، العدد 8، مجلة التدوين، الجزائر، 2016، ص83 ،ص 84.

[2]- ماكفيت جيه دي، مونتجمري، **الأنثروبولوجيا ومكافحة التمرد**، مركز تنمية الفكر الإستراتيجي، دون مكان نشر، 2016، ص 11.